المقدمة

الغربة:

وما أدراك ما الغربة... في الغربة تختلج النفس، ويضيق الصدر وتهيم الروح طيراً يحلقُ في أجواء الأهل والحبيبة والوطن، والغربة في مفهومها الدارج : هو انتقال الجسد وحده إلى مكان آخر غير المألوف الذي تربى به وترعرع، حيث يبقى الشعور والإحساس الذي ينوء به العقل، وذهول القلب إلى اللامتناهي في الغوص بالأفكار التي قد تصبح مثل طيرٍ يحلق بين الأهل والأحبة إلى المكان الذي عاش به وولد فيه !

ففي هذه الأحاسيس يبقى العقل وحده متنقلاً من بيتٍ لبيت، ومن حارةٍ لحارة ومن متزهٍ لغيره، يكلم هذا ويعاتب ذاك، تغيب روحه عن جسده ويبقى الحنين وحده يسيَر في هذه الرحلة أفكار الغريبْ، وتبقى جوارحه معلقة هناك، فاختلاج النفس وهيام الروح في أجواء الصمت المطبق على المرء وهو يحلَقُ بروحه في اللامتناهي من التفكير الدقيق الذي يشكل تقاطعات في الكلام واللغة وازدحامها في مخيلة المبدع مما يرسم الصور التي يراها أمامه والتي ينوء بها عقله، وهذا ما يسرق النوم والراحة من عينيه المسهدتين .

لذا نرى شعر الغربة والذي أنوي البحث عنه والتحري فيه لعلني أكشف ولو بالشيء القليل من معاناة بعض الذين كُتِبَ عليهم التغرب عن الأوطان، نتيجة محاربة مشارط الرقيب اللا أمني في السلطات الفاشية التي اعتمدت البطش والتسلط الإرهابي على الأقلام الحرة التي ترفض الظلم والتسلط وتكشف خفايا الصراع بين السلطة والشعب !

ففي هذه الدراسة المبسطة سنلقي الضوء على بعض الشعراء الذين عاشوا هناك وكتبوا كثيراً من أشعارهم في بلاد الغربة رغم قسوة ما يعانون منه، فكتبوا وأصدروا المجلاَت والكتب وفتحوا دور النشر في كافة أنحاء المعمورة كي ينشروا هذه الأمانة الثقافية الملقاة على عاتقهم، وإبراز الكثير من ظلامات هذا الشعب عبر مخاض آلامه التي أدت إلى مفارقة الأهل والأحبة والوطن نتيجة طغيان السلطات الفاشية الدكتاتورية، لا أريد أن أضع حداً أساسياً لهذه الدراسة عن شعر الغربة وما يلمه، ولا أدَّعي أنيَ ملمٌ بما كتب عنه، من حيث أن الشعر هو الإحساس والشعور الذي ينوء به الشاعر والكاتب على حدٍ سواء فيختلجُ في المخيلة ويضع أسس الإبداع الأدبي والثقافي أمام أنظار الدارسين والمتابعين ،.

بقدر ما أريد أن أوجه الأفئدة الظامئة إلى هذا النوع من الشعر الذي قد تغافلته أقلام الكتاب والنقاد إلاَ النزر القليل ممن كَتبَ عنه وهو لا يسد ذائقة الدارس، هذا النوع من الشعر المنبعث من قلوب أفحمت بمفارقة الأهل والوطن وطارت بعقولها وأفئدتها لتكتب هذا التراث الذي أصبح مجهولاً على ما أعتقد على الكثير من المتتبعين، ولا يفوتني في هذه المقدمة الوجيزة أن أقدم شكري للذين كتبوا عنه وألموا في هذا المخاض المؤلم لهذه النخبة من المغتربين !!

فالغربة وما تعنيه هذه الكلمة من معاناة على نفسية المغترب عن أهله ووطنه، وما يختلجُ في هذا الكيان من كتابات مبدعة أصبحت اليوم صرحاً ثقافياً وأدبياً عالياً لا يستهان به، ولو ألتفت إليه وجمع في مؤلّفات من أقاصي الأرض التي عاش فيها هؤلاء الأدباء، لشكل وبدون مبالغة مؤسسة ثقافية متكاملة لا تحدها الحدود الجغرافية ولا المكانية على طول وعرض هذه المعمورة، فهو يشكل على ما أعتقد نقلة ثقافية وأدبية يجب الالتفات إليها وتبيان أولوياتها ومخاضها العقيم الذي أودى بأعمار الكثير ممن هاجروا في ديار الغربة، وسجلوا لنا هذه القطرات من دمائهم ومعاناتهم في ألواح من الشعر والرواية والقصة وغيرها من الفنون الأدبية الأخرى، علينا البحث فيها وعرضها على طلبتنا

ودارسينا ليتفقهوا بها ويعلموها حتىَ لا يضيع هذا التراث المنتشر في أصقاع هـــذه الأرض الواسعة !!

وأبرز هدف دفعني في الكتابة ودراسة شعراء الاغتراب والبحث عن الروافـــد الـــتي أسهمت في تكوين شخصية شعراء الغربة، وبالتالي الصور التي يرسمونها لنا في هذه الروائع الخالدة، ومدى تأثيرها في مركز الثقافة العربية وفي النص الشعري بالـــذات، ثم دراســـة المضامين الشعرية في شكل القصيدة والرموز التي تحتويها الصورة الشعرية، وأن ندرك معنى الاغتراب وما يؤثره على النفس البشرية من خلال هذا الوجع والألم الذي يمليـــه علـــى المغترب !!

والغربة كابدها الإنسان منذ أقدم العصور، فلقد عثر المنقبون على بضعة أبيات كتبها شاعر بابلي مجهول على أحد صخور منفاه قبل أربعة آلاف **سنة تقول:**

((لقد نفتنا الآلهة ،

لقد نفتنا الآلهة ،

غرباء حتى مع أنفسنا ،

نجوب أزمنة التأريخ والمستقبل..

دون قيثارات ،

هكذا كان حكمنا الأبدي

رحلة بحارة يعشقون النبيذ))

وقبل أن أختم هذه الإشارات في مقدمتي، أود أن أشير إلى هيكلـــة هـــذه الدراســـة التحليلية وما أحتوته في فصولها الثمان والتي اعتمدت فيها التحليل للنصـــوص الشـــعرية الواردة فيها والغوص في نفسيات الشعراء وآلامهم في ديار الغربة !

فالمقدمة احتوت على أهمية هذه الدراسة وأهدافها، وأبرز ما ورد فيها من شعراء الغربة، والتمهيد الذي يحتوي على معنى الغربة في اللغة ومفهومها عند الفلاسفة والأدباء، والأسباب التي تؤول إليها وتأثيرها على الإبداع بصورة عامة، ثم تناولت نبذة عن بعض مقاطع الشعراء الذين حوتهم هذه الدراسة وأبرز المراحل التي مروا بها !

أما الفصل الأول فكان لدراسة شذرات من محاور الإبداع لشعراء الغربة وأبرز روائعهم الشعرية، كالشاعر محمد مهدي الجواهري ورائعته (يا دجلة الخير) والشاعر مصطفى جمال الدين ،السياب، بلند الحيدري، سعدي يوسف، يوسف الصائغ، السماوي، وغيرهم .

أما في الفصل الثاني فقد أفرزته لرائعة السياب الخالدة (سفر أيوب) الذي يعلن فيها سفره الأبدي ويخاطب الغربة بكل مضامينها وعذابها التي تمليه على المغترب !

وفي الفصل الثالث تناولت الغربة وأثرها على شعر المغترب مصطفى جمال الدين، ومعنى الاغتراب عند الفلاسفة والكتاب .

والفصل الرابع تناولت به شاعر الغربة بلند الحيدري، وكيف وصل به الشوق إلى مناغات الليل والنجوم وما إليها من كائنات أخرى، ثم رحيله إلى مثواه الأخير في المغترب والحسرة تملأ قلبه شوقاً على أهله ووطنه !

أما في الفصل الخامس فقد تناولت فيه محاكاة الشاعر المغترب عبدالكريم كاصد شاعر الجنوب للهموم التي ألمت بشعبه وأهله، وأهم الروافد التي شكلت محاور شاعريته في المنفى!

وتناولت في الفصل السادس أوجاع الغربة في قصائد الشعراء ومنهم السياب في قصيدته سفر أيوب ،والشاعر مصطفى جمال الدين وآخرين !!

والفصل السابع تخللته ومضات من شعر الغربة لرعيل شعر الاغتراب في عراقنا الجريح!

أما الفصل الثامن فقد تضمن الصورة الشعرية ومحاكاتها في التشكيل الجمالي عند الشاعر، والشواهد التي تجلتَ الصورة الشعرية والرمز في قصائد شعراء الاغتراب، حيث تقف الصورة الشعرية في مركز العمل الفني، وتوجه القارئ إلى معتقده الأساسي الذي ينوه عنه الشاعر في رسمه لهذه الصور الشعرية .

وبعد فإن هذا العمل المتواضع ما هو إلاَ ثمرة جهد ومتابعة، حاولت فيه أن أعطي ولو على سبيل الإشارة في الدخول إلى معترك شعر الاغتراب الواسع تمهيداً بأن تكون هذه الدراسة امتداداً لدراسات لاحقة تأخذ بنظر الاعتبار الاعتناء بمؤلفات شعراء الغربة في كل مكان من هذا العالم، وجمع هذا التراث المنتشر .

ولا يسعني إلاَ أن أعرج على مقولة شهيرة بين فيها العماد الأصفهاني ((أن الكمال لله وحده)) فمهما اجتهد المرء فلا بد أن يعتريه النقص إذ يقول : ((إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلاَ قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قُدم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر))

وفي ختام هذه المقدمة أود أن أسجل شكري لكل من وقف بجانبي في هذه الدراسة، وأسهم بجهده ورأيه، وأخص هنا أستاذي الفاضل والمربي القدير الأستاذ الدكتور حسين عبود الهلالي أستاذ النقد الأدبي الحديث – كلية التربية – جامعة البصرة؛ لإشرافه على هذه الدراسة والتقديم لها بقلمه الناقد المبدع، وما أبداه من نصيحة وآراء وملاحظات قيمة لها، كما وأوجه شكري وتقديري إلى موظفي مكتبة جامعة البصرة – كلية التربية لما رفدوني ببعض دواوين الشعراء المعاصرين، والتي شكلت رافداً مهماً لهذه الدراسة المتواضعة، كما أشكر زوجتي التي ساعدتني في البحث والتنقيب عن بعض المصادر المهمة

في دراستي، وأتاحة الجو المناسب للتفرد في البحث والدراسة، كما وأقـــدم شـــكري إلى أصدقائي ومنهم الناقد توفيق عبدالرحمن والشاعر عزيز داخل لما قدموه لي ببعض المصادر مشكورين !

فشكراً لهم جميعاً .

والله أسأل أن يكون عملي هذا لوجهه الكريم، والحمـــد لله رب العـــالمين والصـــلاة والسلام على أشرف خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين !!

في البصـــرة

٢٠١١/١١/١٥

الكاتب